

قراءة في كتاب

Le grand vizir Madani El Mezouari El Glaoui. Une vie au service du Makhzen¹

علي بنطالب

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

تقديم

صدر للسيد عبد الرحمان المزوراري الكلاوي، سنة 2017، كتاب باللغة الفرنسية، تحت عنوان: *Le grand vizir Madani El Mezouari El Glaoui. Une vie au service du Makhzen*

يقع الكتاب في 224 صفحة من القطع المتوسط، ويتناول مسار حياة الصدر الأعظم المدني الكلاوي كشخصية مؤثرة في تاريخ المغرب، خاصة خلال المرحلة الممتدة بين سنتي 1866 تاريخ تعيينه قائدا على القبائل التي كانت تحت حكم والده و1918 تاريخ وفاته.

مؤلف الكتاب، هو حفيد المدني الكلاوي، تلقى دراسته بالولايات المتحدة الأمريكية، وشغل مناصب متعددة في مؤسسات مالية داخل المغرب وخارجه. وهو ليس بمؤرخ ولا سوسيولوجي أو أنتروبولوجي². ولعل القراءة التي سنقوم بها في هذا الكتاب لن تأخذ هذا المعطى بعين الاعتبار، لأن استحضارها قد يؤثر في الانطباعات والتأويلات التي يمكن إعطاؤها للعديد من الأفكار والمعطيات الواردة في الكتاب.

- قُدمت هذه القراءة بمقر المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالرباط، يوم 4 ماي 2018، بحضور مؤلف الكتاب السيد عبد الرحمان المزوراري الكلاوي.

² « On pourrait me faire le double reproche d'être les petits fils de Si El Madani... et de n'être ni historien, ni sociologue, ni anthropologue... ». *Le grand vizir...*, P 11-12.

كما أنه من غير الممكن النظر إلى الماضي بنفس الأسئلة التي نطرحها في الحاضر، فلا يمكن أن ننظر إلى القضايا التي حدثت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين، والتي تطرق لها المؤلف بالتحليل، بمنظور الزمن الراهن: حقوق الإنسان- العدالة- النظام القضائي- الشطط في استعمال السلطة - استغلال النفوذ... ولا يمكن أن ننظر أيضا إلى القائد المدني الكلاوي مثلما ننظر إلى القواد والعمال والولاة والوزراء في وقتنا الراهن.

أولا: تقديم الكتاب

1. أهداف تأليف الكتاب

لم يؤلف الكتاب لغرض تجاري، كما أنه ليس أطروحة جامعية أو دراسة أكاديمية محكمة. ويبدو أن شغف المؤلف بكتابة تاريخ شخصية متعاطف معها هو الذي حفزه على بذل مجهود كبير من أجل إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود.

يعتبر المؤلف أن هدفه الأساس من تأليف الكتاب هو تسليط أضواء على شخصية بارزة لعبت دورا مؤثرا في الأحداث التي شهدها المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقدين الأولين من القرن العشرين، اتسمت بخدمته لأربعة سلاطين، ومحاربتة للقبائل غير الخاضعة لسلطة المخزن، ودفاعه عن مصالح بلاده أمام المؤامرات والدسائس الأجنبية³. كما أن عدم اهتمام الباحثين بشخصية المدني الكلاوي والخدمات التي أسداها للمخزن وللبلاد، وربط اسم عائلة الكلاوي بباشا مراكش التهامي الكلاوي، دفعت المؤلف إلى التساؤل عن دوافع وأسباب ذلك، وتقديم تبريرات تفسر دواعي هذا الربط⁴.

2. محاور الكتاب ومنهجه

يتضمن الكتاب، خمسة فصول، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة وجرذا كرونولوجيا للأحداث ولائحة للبيبلوغرافيا المعتمدة، وقد عنونت الفصول الخمسة على النحو الآتي:

³ « ... L'un de ces hommes, issus du Hauts Atlas, Si El Madani El Mezouari El Glaoui, connu une destinée singulière, vouée au service des sultans, à la lute contre les tribus insoumises et à la défense des intérêts de son pays face aux convoitises étrangères. C'est son histoire qui s'apparente à un combat continu et multiforme, que nous essaierons de relater ici ». *Le grand vizir...*, p. 12.

⁴ *Le grand vizir...*, p. 24.

- أصول وجذور عائلة الكلاوي؛
- صعود نجم المدني الكلاوي؛
- المدني الكلاوي الصدر الأعظم؛
- المدني الكلاوي ونظام الحماية الفرنسية؛
- المدني الكلاوي كما يراه معاصروه؛

تحدث المؤلف في مختلف محاور الكتاب عن مسار المدني الكلاوي، في سياق الأحداث الوطنية والدولية التي شهدتها البلاد؛ مقدما معطيات هامة، من مصادر ومراجع متعددة، ومن خلالها يتبين للقارئ مدى اطلاع المؤلف على العديد من المصادر والمراجع المغربية والأجنبية ذات الصلة بالموضوع والفترة المدروسة، حيث قدم اقتباسات كثيرة باللغة الإنجليزية مع ترجمة لها باللغة الفرنسية.

وتجدر الإشارة إلى أهمية الهوامش الواردة في الكتاب، حيث شغلت حيزا هاما، إذ وصلت إلى 474 إحالة. وقد قدم المؤلف فيها معطيات مهمة حول العديد من الشخصيات الوطنية والأجنبية؛ مع تمكنه من ضبط الإحالات والمعطيات، وتقديم صفحات الاقتباسات؛ ولا بد من التنويه أيضا بأهمية كرونولوجيا الأحداث المقدمة في خاتمة الكتاب.

ورغم الملاحظات المسجلة حول بعض مضامين الكتاب، يمكن اعتبار منطلقاته علمية صرفة؛ كما أن الكتاب ليس فقط رؤية وصفية وسردية لأحداث وقعت منذ أزيد من قرن من الزمان، بل قدم المؤلف رؤية تحليلية وتفسيرات وتأويلات للعديد من الأحداث والوقائع التاريخية.

كما نسجل قدرة المؤلف على تقديم المعطيات بشكل كرونولوجي، ووضعها في سياقها الوطني والدولي قبل الخروج باستنتاجات، وقدرته على مقارنة المعطيات الواردة في مراجع ومصادر متعددة، وتقديم إفادات مما كتبه مغاربة وأجانب حول المواضيع المتناولة في الكتاب.

3. أهم القضايا التي تناولها المؤلف

نجد في الكتاب معطيات مرتبطة بموضوعه، وفق المحاور المشار إليها أعلاه، بالإضافة إلى معطيات تهم تاريخ المغرب، مثل هزيمة إيسلي وتداعياتها، والاتفاقيات والمعاهدات الشائبة. كما يقدم الكتاب معطيات حول منطقة تلوات، وقد ترجم المؤلف نصوصا من اللغة

الإنجليزية إلى الفرنسية ذات الصلة بالسكان، والحرف، والخصائص المعمارية، واللباس، والرقص الجماعي...⁵ كما قام المؤلف بتقديم شروحات لبعض المصطلحات الأمازيغية: "إزور" - "أكلوو" - "أمغار"... وتطرق لبدايات أسرة الكلاوي، خاصة القائد المدني الكلاوي⁶. ووقف عند دوره في مختلف الأحداث التي عاشتها البلاد، مشيراً إلى قيادته للعديد من الحركات والمخلات المخزنية ضد التمردات القبلية، منها تلك التي تلت وفاة السلطان مولاي الحسن، وخاصة تمرد قبيلة الرحامنة بزعامة الطاهر بن سليمان الرحماني، وتمرد قبائل سوس⁷. وقد أشار المؤلف إلى أن المدني الكلاوي شارك في الحصار الذي ضرب على قبيلة مسفيوة سنة 1899⁸.

شارك المدني الكلاوي أيضاً في حروب المخزن ضد الجليلي بن ادريس الزرهوني (بوحمارة)، وقد لعب دوراً كبيراً في مواجهة ثورته بمنطقة الشمال الشرقي. وكان الفشل في إخمادها سبباً في بدايات الاختلاف بين مولاي عبد العزيز والمدني الكلاوي⁹.

قدم المؤلف معطيات متعددة حول احتلال الشاوية سنة 2007؛ وحول دعم الحركة الحفيظية من طرف كبار القواد في الجنوب، مبرزاً رؤيته للحركة، مركزاً على الدور الكبير الذي لعبه المدني الكلاوي في بيعة مولاي عبد الحفيظ. كما تناول تفاصيل الصراع بين مولاي عبد الحفيظ ومولاي عبد العزيز ودور المدني الكلاوي في ذلك¹⁰.

بمجرد مبايعة عبد الحفيظ بمراكش في غشت 1907، تم تعيين المدني الكلاوي علافاً كبيراً، بمعنى وزيراً للحرب، ووقعت علاقة مصاهرة بين الجانبين. وقد أورد المؤلف اقتباساً لروبير مونطاني حول تزايد نفوذ المدني الكلاوي ومجالات القبائل الخاضعة له بعد تعيين

⁵ تحدث المؤلف عن أربعة أصناف للرقص الجماعي بالمنطقة وقدم أسماءها بالأمازيغية، ص 28-30.

⁶ انظر الفصل الثالث من الكتاب، ص 61 وما بعدها.

⁷ « Le combat sans relâche de Si El Madani contre la Siba le mena entre autres dans le Sous, dans les R'hamna en 1896, contre le Rogui Tahar Ben Slimane, contre les Beraber en 1900, contre le Rogui Bou H'mara dans la région de Taza-Oujda en 1903, etc. ». *Le grand vizir...*, p. 75.

⁸ بعد تولية مولاي عبد العزيز سنة 1894 أضيف للمدني الكلاوي حكم قبيلة مسفيوة الثائرة والتي أخضعها بمساعدة القائد عبد الحميد الرحماني.

⁹ أشارت بعض الكتابات التاريخية إلى أن السلطان مولاي عبد العزيز فرض على المدني الكلاوي دفع مبلغ مالي مائة ألف ريال بعد تزايد أزمة المخزن المالية عقب الفشل في إخماد ثورة الجليلي الزرهوني (بوحمارة).

¹⁰ ص 87-88 من الكتاب.

مولاي عبد الحفيظ سلطانا على البلاد¹¹. كما أشار المؤلف إلى أن العديد من الدراسات أكدت دور المدني الكلاوي في تعيين إخوانه قيادا على العديد من القبائل.

تحدث المؤلف عن الحيشات التي جعلت الهوة تتسع شيئا فشيئا بين السلطان عبد الحفيظ ووزيره المدني الكلاوي، ومن أهمها تزايد النفوذ الفرنسي في صفوف المخزن، واعتراف السلطان بمقررات الجزيرة الخضراء. وقد أشار المؤلف إلى أن المدني الكلاوي حاول حث أخيه التهامي الكلاوي، باشا مراكش، على عدم ربط علاقات مع الفرنسيين بالشاوية¹².

وقف المؤلف عند حيشات إعفاء المدني الكلاوي من منصب الصدارة العظمى من طرف السلطان مولاي عبد الحفيظ، مؤكدا بأن السبب الرئيس في ذلك هو معارضته لتزايد النفوذ الفرنسي داخل المخزن؛ كما دافع عن عدم مسؤولية المدني الكلاوي عن ثورة القبائل سنة 1911 وحصارها لفاس¹³. واعتبر بأن استمرار الثورة رغم إعفاء المدني الكلاوي من منصبه دليل على أن أسباب القلق العام للقبائل لا يرتبط أساسا بالمدني الكلاوي. كما أن البورجوازية الفاسية لم تكن تنظر بعين الرضى للنفوذ الكبير الذي أصبح يتمتع به قائد أمازيغي داخل المخزن الذي كان يستقر بالمدينة.

تحدث المؤلف عن حيشات توقيع معاهدة الحماية، مبرئا المدني الكلاوي ومتهما مخزن مولاي عبد الحفيظ. كما انتقد بعض القرارات المتخذة، بما فيها إعفاء شخصيات وازنة مثل المدني الكلاوي، واعتبر أن المغرب فقد بذلك فرصا للتطور والرقى. وأورد المؤلف معطيات

¹¹ L'ascension du fqih après l'avènement de Moulay Hafid est ainsi décrite par Montagne : « Le triomphe de Moulay Abdelhafid fait de Si el Madani le grand visir du nouveau souverain établi à Fez. Le pouvoir du chef de Telwet devient alors sans limites. Il se charge de percevoir l'impôt chez les tribus du Nord du Maroc, il amasse des richesses, augmente sa clientèle, et profite de sa haute situation pour établir ses frères à Marrakech et à Demnat. Il se fait attribuer le commandement de toutes les tribus du Dir de l'Atlas entre Demnat et Amizmiz. Sa puissance alors est comparable à celle des grands chefs Hintata et des vizirs mérinides au temps d'Ibn Khaldoun ». *Le grand vizir...*, p. 105.

¹² ص 115-116 من الكتاب.

¹³ « De toute évidence, Si El Madani était l'un des éléments du problème, mais non sa cause essentielle ». *Le grand vizir...*, p. 124.

تشير إلى محاولة المدني الكلاوي اقتراح سلطان آخر بدلا لمولاي عبد الحفيظ. كما أشار إلى ربطه لعلاقات سرية مع الهبة في محاولة لدعم حركته¹⁴.

أشار المؤلف إلى أن المدني الكلاوي استمر على نفس النهج الذي سلكه طوال حياته كقائد كبير خلال الست سنوات المتبقية من عمره، والتي تزامنت مع فرض الحماية الفرنسية على المغرب. ويتجلى ذلك في محاربة "السيبة" تحت ظل السلطان، ومن أجل بلاده، رغم أنها أصبحت تحت هيمنة المستعمر¹⁵.

4. خلاصات المؤلف الرئيسة بخصوص شخصية المدني الكلاوي

حاول المؤلف إبراز الأدوار المتعددة التي قام بها المدني الكلاوي في خدمة المخزن، مقدما صورا إيجابية "لرجل دولة" كرس حياته من أجل المصالح العليا لبلده وحظي بدعم ورضى الساكنة التي كانت تحت حكمه¹⁶. واعتبر أن موقف الكتابات المنتقدة للمدني الكلاوي يبنني على حقائق مغلوطة أو على سوء فهم للأحداث. ودعم المؤلف دفاعه عنه بالإشارة إلى أنه لم يسع للحصول على الحماية الأجنبية، بما يتصل بها من امتيازات متعددة، كما فعل الكثير من المغاربة المعاصرون له.

وأشار المؤلف إلى أن المدني الكلاوي عارض بشكل غير مباشر الفرنسيين بعد توقيع معاهدة الحماية، وربط اتصالات مع موحا أوحمو الزياني ومع القبائل غير الخاضعة للتدخل الفرنسي. وبرر موقفه من الحماية بالسياق العام لتلك الفترة والذي جعل السلطانين مولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف يتعاملان مع سلطات الحماية وفق ما تستدعيه الظروف. وقد جعل المؤلف من حق المدني الكلاوي وكبار القواد المساهمة في عمليات "التهدة" لأنها تتم

¹⁴ « En effet, Lyautey, conscient de l'importance politique et guerrière des Glaoua fondait l'espoir d'en faire ses alliés. C'était là une revanche éclatante pour le fqih, dont la chute avait été, moins d'une année, causée par les Français ». *Le grand vizir...*, p. 150.

¹⁵ « Pendant les six années qui lui restaient à vivre, Si El Madani continua ce qu'il avait fait tout au long de sa vie de grand caïd : combattre la siba sous la bannière du sultan, et donc pour son pays, même si celui-ci était tombé sous la coupe du colonisateur ». *Le grand vizir...*, p. 156.

¹⁶ لم يقدم المؤلف ما يبرر به هذا الاستنتاج، بل بالعكس تؤكد العديد من الوثائق المخزنية معاناة السكان من تعسفات كبار القواد ومن ضمنهم المدني الكلاوي، خاصة في ما يتعلق بالجباية.

باسم السلطان والمخزن. وأكد على ضرورة عدم ربط مواقف الحاج التهامي الكلاوي بمواقف المدني الكلاوي، معتبرا أن التهامي استفاد من الإرث والدعم الذي لقيه من أخيه الأكبر¹⁷.

ثانيا: قراءة في بعض مضامين في الكتاب

حاولنا في المحور الأول من هذا العمل تقديم الكتاب وفق التصور الذي أراده له مؤلفه. وعملنا على الوقوف عند أهم مضامينه والقضايا الرئيسية التي تطرق إليها. وإذ نشمن الجهود الذي بذله المؤلف في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود، فإننا نسجل ملاحظات عديدة بخصوص طريقة تناول بعض القضايا، والمقاربة المتبعة في ذلك. ومن أهم هذه القضايا نذكر ما يلي:

1. السيلوغرافيا المعتمدة من طرف المؤلف

يعاني الكتاب من نقص كبير على مستوى التوثيق، حيث لم يتم الاعتماد على الأرشيفين الوطني والأجنبي، وهما ضروريان في مثل هذه المواضيع. كما أن أغلب الدراسات والكتابات المعتمدة أجنبية، ولم تتم الإشارة إلى بعض المصادر والدراسات التي وجهت نقدا لادعاء لسياسة المدني الكلاوي. وتطرح هذه الانتقائية في المراجع والمصادر سؤالا عما إذا كان المؤلف قد استطاع فعلا كتابة تاريخ موضوعي تغيب فيه الذاتية، خصوصا وأن الأمر يتعلق بتاريخ شخصية مخزنية لها ما لها وعليها ما عليها، فكان من الضروري استحضار المادة التاريخية المتوفرة بغض النظر عن طبيعة المعطيات التي قدمتها بخصوص شخصية المدني الكلاوي ومواقفه.

2. المدني الكلاوي واستبداد المخزن

قدم المؤلف رؤيته حول شخصية المدني الكلاوي والأدوار التي قام بها في خدمة المخزن. بيد أن سؤالا يطرح نفسه بجدة: ألم يكن المدني الكلاوي، ومعه كبار القواد بالجنوب،

¹⁷ « Au terme de ce travail, j'ose présumer que les différentes facettes de l'administrateur, du chef de guerre, du politique, de l'homme d'Etat et du chef de famille que fut si El Madani apparaitront plus clairement. Pour ce qui me concerne, je considère que cet homme, qui fut investi tour à tour par quatre souverains successifs en tant que khalifa de son père, puis comme caïd, khalifa du sultan sur le Draa et le sud, âmel sur le Tafilalet, ministre de la guerre et grand vizir, a fidèlement servi son pays. Voilà l'essentiel ». *Le grand vizir...*, p. 101.

يجسدون مظاهر استبداد المخزن، أي يد المخزن لضرب القبائل؟ ويجد هذا السؤال تبريره من خلال تتبع الأساليب التي كان ينهجها المخزن في مواجهة القبائل المتمردة، وخاصة أثناء تمرد القبائل بعد وفاة مولاي الحسن؛ نذكر منها فتن قبائل الحوز، وتمرد الرحامنة الذين دعموا مولاي محمد الابن الأكبر للسلطان مولاي الحسن بحثا عن "الشرعية المفقودة". كما يعتبر المدني الكلاوي جزءا من منظومة المخزن التي مارست أساليب عقابية عنيفة ضد القبائل المتمردة في منطقة سوس سنة 1896، وشارك أيضا في الحصار الذي ضرب على قبيلة مسفيوة سنة 1899¹⁸. وهذا الإخلاص للسلطة المركزية هو الذي جعل المخزن العزيمي، بالرغم من سوء علاقاته مع بعض القواد، يتنازل لهم ويوافق على توسيع نفوذهم في جيرانهم.

إلى جانب ذلك، نجد أن ممارسات كبار القواد في الجنوب، بمن فيهم المدني الكلاوي، غائبة في الكتاب: شطط - سجن - قتل - عبودية - استغلال السكان المحكومين - الاستيلاء على أموال الغير - الضغط الجبائي - التسخير بجميع أنواعه ... ورغم أن هذه الأساليب كانت مرتبطة بالسياق العام للفترة التي عاصرها القائد المذكور، إلا أنه كان على المؤلف الإشارة إليها أو إلى بعضها، خاصة أثناء حديثه عن رضى السكان بحكم القائد المذكور وسياسته تجاههم.

3. موقف المدني الكلاوي من الإصلاح الجبائي العزيمي "الترتيب"

وضع المؤلف عنوانا فرعيا لكتابه يشير فيه إلى أن المدني الكلاوي كرس حياته لخدمة المخزن، وقدم معطيات عديدة لتبرير استنتاجه وموقفه، غير أن الاطلاع على مادة مصدرية ومرجعية أخرى يؤكد عكس هذا الاستنتاج في مواقف متعددة اتخذها القائد المذكور.

ومن بين هذه المواقف الدور الذي لعبه المدني الكلاوي في معارضة الإصلاح الجبائي للسلطان مولاي عبد العزيز والمعروف بالترتيب. فبعد توتر العلاقة بين السلطان والأكلاوي عقب فشل هذا الأخير في القضاء على فتنة "بوحامرة"، تغيرت مواقفه تجاه المخزن. كتب الأستاذ علال الخديمي بخصوص هذا الموضوع قائلا: "...وهكذا لما عاد الأكلاوي إلى

¹⁸ رؤساء الحملة النازلة على مسفيوة هم: القائد المهدي المنبهي والقائد المدني الكلاوي، والقائد محمد الوريكي وقواد الرحامنة.

نتج عن محاصرة المسفيويين وتضييق الخناق عليهم "فراهم بأولادهم وأمتعتهم بالطرقات"، وإيقاد النار في دورهم "من المحل المسمى تلبانت إلى يوكن في فم الجبل"؛ وقد اضطروا إلى الخضوع في الأخير لسلطة المخزن "... خاصة بعد أن فعل بهم الثلج أكثر مما فعل بهم البارود". راجع، بنطالب علي، المخزن والقبائل، الضغط الجبائي وتداعياته 1894-1912، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2013. ص 293-300.

بلاده، كان همه الأول هو جمع الأموال لتسديد ديونه وتقوية جانبه. ومنذ ذلك التاريخ 1904، أصبح يحتاط لنفسه ويماطل في جمع واجبات الترتيب ودفعها لبيت المال، ولم يعد يتزعج من توالي أوامر السلطان وتوبيخاته له بالتماطل وتعطيل الترتيب¹⁹.

كما تشير وثائق مخزنية عديدة إلى دور المدني الكلاوي في عرقلة الترتيب، وفي إحداها يتهم السلطان مولاي عبد العزيز مباشرة القائد المذكور بالتماطل في استخلاص واجب الترتيب بقوله: "...وأمرناك بتعمير المحلة بنفسك وحركتك والمفاوضة مع أخي مولاي عمر في شد عضد المحلة واستيفاء الترتيب الذي هو الغرض منها وجددنا لك أمرنا الشريف مرارا بربطك معه ولازمتك لم تفعل وبسببك وقع التراخي والانحلال في أمرها ممن عداك من العمال إذ لو ربطت بها لتسارع الجميع إلى الاقتداء بك وعليه بوصوله إليك عجل بعمارة المحلة وملازمتها بنفسك والوقوف في حمل إياك على أداء الترتيب وشد عضد العمال الذين معكم حتى يؤدي كل واحد ما على إياكته.."²⁰.

وحول هذا الموقف كتب الخديمي قائلا: "... من هذا الموقف الذي اتخذه المدني الكلاوي وعدد من قواد الجنوب من محلة مولاي عمر تبرز مظاهر "صراع خفي بين مخزن عاجز عن رد الفعل، نتيجة للأزمة المالية، وقياد اتسع مجال نفوذهم، وبالتالي اتسع ميدان المناورة أمامهم، فاكتفوا بدفع قليل من المال لبيت المال، المرة بعد المرة، عندما كان إلحاح المخزن يتكرر عشرات المرات"²¹. وقد أشار المؤلف إلى النفوذ الذي أصبح يتمتع به الكلاوي في قبائل الجنوب، وقدرته على الضغط على السلطان. ولذلك يطرح السؤال حول المدني الكلاوي ومدى إخلاصه المستمر في خدمة المخزن، خاصة عندما يتعلق الأمر بمعارضة إصلاح جبائي أقره السلطان وتوحي منه خدمة مصالح رعيته بالدرجة الأولى.

¹⁹ علال الخديمي، الحركة الحفيفية أو المغرب قبيل فرض الحماية الفرنسية، 1894-1912، منشورات دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2009، ص 91.

علي بنطالب، المخزن والقبائل، م.س، ص 221-242.

²⁰ رسالة السلطان إلى المدني الكلاوي، 31 دجنبر 1905، م. و. م. مح ذو القعدة 1323هـ. المخزن والقبائل، م، س، ص 239.

²¹ الخديمي، "العواقب الاجتماعية والسياسية لترتيب 1901"، ضمن دراسات مهداة للفقيد جرمان عياش، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1992. ص 236.

4. المدني الكلاوي واستغلال النفوذ داخل دواليب المخزن

لعب المدني الكلاوي دورا كبيرا في تولي السلطان مولاي عبد الحفيظ مقاليد الحكم في المغرب خلفا لأخيه مولاي عبد العزيز. وبعد تعيينه وزيرا للحرب في مرحلة أولى، ثم توليه منصب الصدارة العظمى في مرحلة ثانية، ازداد نفوذه داخل المخزن²². وكان السلطان مولاي عبد الحفيظ يعتمد على المدني الكلاوي بشكل كبير، خاصة خلال السنتين الأولى من تنصيبه سلطانا على البلاد، ويظهر ذلك بشكل جلي في تفويضه له بالتصرف حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال في عين المكان، فقد كتب السلطان إلى الأگلاوي قائلا: "... وقد قدمنا لكم أمرنا الشريف باصطحاب عسكر القبائل المفروض عليهم على يدكم مع من تتعين مصاحبته لكم من العمال والقبائل فامضوا عليه إن كانت هي المصلحة وإلا فالحاضر يرى ما لا يراه الغائب"²³.

استفاد المدني الكلاوي من تزايد نفوذه، وقام بتعيين عدد من المقربين منه، خاصة من عائلته، في مناصب قيادية²⁴. ويمكن القول، بأن هذه التعيينات تدخل في إطار استغلال النفوذ من خلال تعيين المقربين منه في مناصب هامة، كما تدخل أيضا في إطار خدمة المخزن، بتوفير رجال مخلصين مقربين من رجل خدوم للسلطة المركزية. وقد راكم المدني الكلاوي ثروات هائلة بجانب السلط الكبيرة التي كان يتمتع بها²⁵. كل هذا أثار ضده انتقادات كبيرة عكستها العديد من الكتابات التاريخية.

²² اعتمد السلطان عبد الحفيظ على كبار القواد بالحوز الذين عينهم في مناصب وزارية وطالبهم بتزويده بجايات القبائل الخاضعة لهم، وفوض لأهم وزرائه، المدني الكلاوي، سلطة مكنته من التعسف بجايات الكثير من القبائل، والتحكم في تعيينات عدد من القواد. الحجوي محمد بن الحسن، *تقايد تاريخية*، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم ح 123.

²³ رسالة المولى عبد الحفيظ إلى المدني الكلاوي، بتاريخ 19 شوال 1326 / 14 نونبر 1908، وثائق الخزنة الحسنية بالرباط، عهد مولاي عبد الحفيظ، محفظة 636.

²⁴ « Si Elmadani fait nomer ses frères à plusieurs hautes fonctions : Si Hammadi (Caid de Ouarzazate), Si Allal (Caid de Demnat et des Fetouaka), Si Hassi (Caid des Seksaoua et des Gheghia) et Haj Thami (Pacha de Marrakech) ». *Le grand vizir...*, p. 208.

²⁵ « En revanche à atteindre les objectifs voulus par les sultans qu'il a servis, il eut, ceci est indéniable, la possibilité d'acquérir un immense pouvoir, de satisfaire ses ambitions personnelles et d'amasser une fortune importante ». *Le grand vizir...*, p. 197.

5. المدني الكلاوي وانتفاضة القبائل سنة 1911

شكلت انتفاضة قبائل أحواز فاس ومكناس سنة 1911 آخر حلقة في مسلسل التمردات التي شهدتها القبائل المغربية قبل فرض الحماية على البلاد. وقد ساهمت هذه الانتفاضة التي تمت بالقبائل المجاورة للعاصمة فاس، حيث كان يستقر السلطان، في انهيار سلطة المخزن، وفقدانه سلطة التحكم في تسيير ومراقبة أمور القبائل، وبالتالي المجتمع بأكمله. وكان من أهم شروط المتمردين لرفع الحصار عن فاس عزل الوزير المدني الكلاوي من منصبه، وفرض ضرائب شرعية يكون باستطاعة القبائل أداءها للمخزن، وإلغاء النظام العسكري الجديد²⁶.

حاول مؤلف الكتاب الدفاع عن المدني الكلاوي بخصوص مسؤوليته في اندلاع هذه الأحداث، معتبرا بأنه جزء من المشكل ولا يتحمل لوحده مسؤولية ما كل ما وقع، مؤكداً بأن استمرار حصار القبائل لفاس رغم إعفاء المدني الكلاوي من منصب الصدارة العظمى دليل على ذلك²⁷. غير أن المؤلف لم يشير إلى العديد من الكتابات المعاصرة للأحداث التي وجهت الاتهام المباشر للصدر الأعظم المدني الكلاوي، واعتبرت أن ما صدر من القبائل كان بسبب ظلمه وجوره. فالحجوي مثلاً يقول بخصوص هذا الانتفاض: "وفي آخر صفر عام 1329هـ ثارت قبائل الغرب أحواز فاس على مولاي عبد الحفيظ ثورة هائلة بسبب ما ساهمهم وزيره السيد المدني الكلاوي وإخوته المتولون من قبله عليهم من الظلم الفاحش... وهكذا تجبر الاكلاوي على الرعية وطغى بنفسه في الغرب وبإخوته في الحوز وصارت له دالة وهيبة على السلطان وصار كل من ظهر له فعله وولى نفسه على القبائل مباشرة ونصب أبناء عمه مثل بويبرين وبوقدور نوابا عنه فساموا القبائل أنواع الخسف والظلم..."²⁸.

وهذا ما أكدته بعض الكتابات الأجنبية حول أحداث 1911، حيث أرجعت سبب انتفاضة قبائل أحواز فاس ومكناس إلى إرهاب المخزن للرعية بمزيد من الضرائب، وحملت المسؤولية في ذلك للوزير المدني الكلاوي²⁹. وتتضح مسؤولية الصدر الأعظم في ما حدث

²⁶ Laroui. A., *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912)*, Maspero, Paris, 1977, p. 409.

²⁷ *Le grand vizir...*, p. 125.

²⁸ الحجوي محمد بن الحسن، *تقايد تاريخية*، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط، رقم ح 123. ص: 45.

²⁹ Azan Paul, *L'Expédition de Fez*, Paris, 1924, p. 11.

انظر أيضا:

Gaillard Henri « L'insurrection des Tribus de la région de Fès », *L'Afrique Française* (R.C), n°11, 1911, p. 257-264) et Le Glay Maurice (*Chronique Marocaine*, Paris, 1933, p. 7).

سنة 1911 من خلال سوء المعاملة التي تعرض لها زعيم التمرد بقبيلة بني مطير القائد عقى البومدماني، فقد سجن هذا الأخير في أواخر سنة 1910 بتهمة عدم أداء ما يكفي من الوظائف للسلطة المركزية، وحدد المدني الكلاوي للقائد المطيري فدية كبيرة لإطلاق سراحه، وكانت هذه القضية سببا في خروج القائد عقى البومدماني عن طاعة المخزن الحفيظي، وتحريض قبائل بني مطير ضده³⁰.

6. موقف المدني الكلاوي من الحماية الفرنسية بالمغرب

ظل المدني الكلاوي يعتبر أن الفرنسيين هم سبب عزله من الصدارة العظمى، وبالتالي هذا الموقف كان يحكم علاقاته بالفرنسيين³¹. وبعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب برر المؤلف مواقف المدني الكلاوي منها بكونه أصبح مجبرا على التعامل مع الفرنسيين لاعتبارات متعددة رغم أنه في عمقه كان يعارض النفوذ الفرنسي بالمغرب³². واستدل المؤلف بموقف السلطانين مولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف من نظام الحماية، مشيرا إلى أنه حاول ربط اتصالات سرية مع بعض المقاومين.

لا يمكننا أن نتفق مع رؤية المؤلف بخصوص هذا الموضوع لأسباب متعددة، فلا يمكن التحجج بسياق الاستعمار ومواقف السلطانين المذكورين من نظام الحماية، كما لا يمكن الاقتناع بمحاولة ربط اتصالات سرية مع مقاومين دخلوا في مواجهة مباشرة وعلنية مع المستعمر، ورفضوا أي تعاون مع الفرنسيين رغم كل الإغراءات المقدمة. فلماذا لم يسلك هؤلاء نفس موقف السلطانين المذكورين؟ ويبدو أن المدني الكلاوي تعامل ببرாகماتية مع المستعمر واستحضر مصالحه الخاصة في أثناء تعامله مع الفرنسيين.

كما اعتبر المؤلف بأن المدني الكلاوي انخرط، خدمة للسلطان وللمخزن بعد فرض نظام الحماية، في مواجهة "السيبة"، وبالتالي ساهم في عمليات "التهدة" التي كانت تقوم بها سلطات الاحتلال باسم السلطان. وأشار إلى أن وفاة عبد المالك الكلاوي، أحد أبناء

³⁰ أكينح العربي : آثار التدخل الأجنبي في المغرب على علاقة المخزن بقبيلة بني مطير (1873-1912)، د.د.ع. كلية الآداب بالرباط، 1984. ص 398.

³¹ « Pendant les six années qui lui restaient à vivre, Si El Madani continua ce qu'il avait fait tout au long de sa vie de grand caïd : combattre la siba sous la bannière su sultan, et donc pour son pays, même si celui-ci était tombé sous la coupe du colonisateur». *Le grand Visir...*, p. 156.

³² « Il est aisé d'imaginer les sentiments meurtris de cet homme obligé de composer avec ceux dont il refusait naguère l'influence ». *Le grand vizir...*, p. 157.

المدني، سنة 1918، تم في حروب ضد زعماء زاوية أحنصال المتمردة ضد المخزن³³. ولعل القبول بهذا الرأي يعني أن عمليات المقاومة وتضحيات فئات عريضة من المجتمع المغربي تدخل في إطار الفوضى العامة (سيبية)، وهي موجهة ضد مخزن لا يملك عمليا أية سلطات حقيقية.

وانتقدت كتابات مغربية عديدة موقف عائلة الكلاوي من نظام الحماية بالمغرب، فقد كتب الأستاذ إبراهيم ياسين قائلا: "... ولم يكن ليوطي يملك من بديل لتلك القوات إلا مزيدا من الاتكال على دعم القادة الكبار للاحتفاظ بالمواقع التي كان يحتلها في الجنوب. وفي ظروف بداية الحرب العالمية هذه لم يتردد رئيس العائلة المزوارية -القائد المدني- في استغلال الفرصة وعرض خدماته على المقيم العام. وقد جنى من هذا الموقف نفعا كبيرا، تمثل -كما جاء في تصريح لابن أخيه حمو المزواري- في مساعدة إدارة الحماية لأسرته" في تنمية سلطتها وتوسيع حكمها". وهذا ما يفسر النجاح الذي حققه المزواريون في إخضاع قبائل أيت واوزكيت إخضاعا كاملا، والقضاء على نفوذ أحمد الهبة في تلك القبائل خلال سنوات الحرب العالمية الأولى بالذات³⁴.

الخلاصات الأساسية

إضافة إلى كل ما أبدناه بخصوص مؤلف السيد عبد الرحمان المزواري الكلاوي من مزايا علمية وملاحظات تمس جوهر بعض الأفكار والمعطيات الواردة فيه، نود إبداء الخلاصات الأساسية الآتية:

- حاول المؤلف تناول شخصية الصدر الأعظم المدني الكلاوي، بما لها وما عليها. وقد أورد المؤلف الكثير مّا لشخصية المدني الكلاوي من خدمات للمخزن وتضحيات في سبيل البلاد، والقليل مما عليها وما على الجهاز المخزني الذي يخدمه، قبل الحماية وخلال السنوات الأولى للاستعمار.
- قدم الكاتب المدني الكلاوي وكأنه "على صواب دائما في قراراته وتصرفاته": فبالنسبة للمؤلف، كان الكلاوي مخلصا في خدمة السلطانين مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز

³³ *Le grand vizir...*, p. 210.

³⁴ إبراهيم ياسين، جنوب أطلس مراكش تحت حكم الفرنسيين والقادة الكلاويين، دار أبي رفاق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2003، ص 120.

ضد التمردات القبلية وزعامات الثورة هنا وهناك، وكان على صواب في دعمه لحركة مولاي عبد الحفيظ ضد أخيه مولاي عبد العزيز، وفي معارضة مولاي عبد الحفيظ في بعض القرارات، وكان حكيما في ردة فعله على عزله، ثم شخصا براجماتيا يتمتع ببعد نظر في مواقفه بعض فرض الحماية الفرنسية بالمغرب.

- جعل المؤلف القارئ يتعاطف مع شخصية المدني الكلاوي: رجل دولة وطني وغيور على بلاده، مدافع عن المصلحة العامة، مخلص في خدمة المخزن. لكن الاطلاع على دراسات أخرى قد يجعل القارئ لا يخرج بنفس الانطباع، بل بانطباع معاكس تماما.
- حاول المؤلف تصيّد كل ما إيجابي في مختلف الكتابات التي أشارت إلى المدني الكلاوي، ويبدو من قراءة الكتاب بأكمله بأنه حاول تجنب كل ما يسئ إلى شخصية الكلاوي ومواقفه.
- نجح المؤلف في تقديم صورة إيجابية عن المدني الكلاوي، رغم تركيزه في كل مراحل الكتاب على الصورة المضيئة التي لا تشوبها شائبة. وهذا أمر غير ممكن في مغرب أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين.
- رغم كل الملاحظات المقدمة، يشكل الكتاب مساهمة علمية وفكرية في كتابة تاريخ الشخصيات المؤثرة في تاريخ المغرب، بذل فيها المؤلف جهدا كبيرا، وقدم إضافات متعددة. والكتاب في مجمله سيغني الخزانة التاريخية المغربية.
- نتساءل في الأخير: لماذا لم يكن المدني الكلاوي موضوع بحث أكاديمي خاص في الجامعة المغربية، يتم فيه استغلال الوثائق المخزنية المتوفرة بكثرة والأرشفة الأجنبي خاصة منه الموجود بفرنسا، وكذا الكتابات الوطنية والأجنبية التي قدمت معطيات متعددة عن المدني الكلاوي كشخصية مؤثرة في الأحداث والوقائع التاريخية لمدة تقارب أربعة عقود؟